

الفصل الثاني

نظرة المسلمين إلى العالم

ابتدع العالم الغربي على مر القرون عديدةً من الوسائل لتقسيم الجنس البشري ، فقد قسم اليونانيون العالم إلى يونانيين وبرابرة ، كما قسم اليهود إلى يهود وأمم أخرى . وفي فترة متأخرة ابتكر اليونانيون أيضاً تصنيفاً جغرافياً يظهر فيه العالم على أنه مكون من قارات هي : قارتهم أوروبا ، وآسيا التي تقع على الجانب المواجه لبحر إيجه ، وخلف الشاطئ الإيجي عند نهاية المنطقة التي أطلق عليها اسم آسيا الصغرى كانت تبدو آسيا الكبرى ، ولقد كان اسم آسيا يعطي امتداداً أوسع . وبمرور الوقت تم تجزئة آسيا (اللا - أوروبية) إلى أقسام .

أما الجزء الذي يقع على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط . . فقد أطلق عليه أسماء يونانية لاتينية جديدة . لقد أطلق عليه أولاً ليبيا ، وفيما بعد أطلق عليه أفريقيا - أما بالنسبة للأوروبيين فإن العالم خلال فترة العصور الوسطى كان مقسماً بين المسيحيين والوثنيين ، ثم بعد ذلك بين الممالك المسيحية والملكية . ولقد تبنى العالم الحديث مفهوم دولة الشعب على إنه تصنيف أساسي محدد للهوية واللاء .

أما النظرة الإسلامية للعالم وشعوبه . . فكانت مختلفة اختلافاً تاماً من حيث التركيب فلم يعرف كتاب التاريخ والجغرافيا المسلمون حتى القرن التاسع عشر شيئاً عن الأسماء التي أطلقها الأوروبيون على القارات وكانت آسيا غير معروفة لهم ، كما كانت كلمة أوروبا بالنسبة لهم غير محدودة ويطلقون عليها Urufa ، ولم تكن تذكر إلا في إشارة عابرة ، في حين أن مصطلح أفريقيا كان قد عرب إلى إفريكا Ifriqiya وظهرت فقط كإسم للمغرب العربي الذي يشتمل على تونس Tunisia والمناطق المجاورة .

وقد قسم الجغرافيون المسلمون العالم إلى أقاليم وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Clima ولكن يعتبر هذا التصنيف تصنيفاً جغرافياً بحتاً ، ليس له مغزى سياسي أو ثقافي ويدل على ذلك أسماء القارات في سياق الكلام العربي والحديث . ولم تشر الكتابات التاريخية الإسلامية مرجعياً للأقاليم Iqlims ، بل يبدو أنها لم تكن تشغل مكاناً في الوعي النفسي المشترك للشعوب الإسلامية .

وبالرغم من أهمية تقسيم العالم إلى أقطار وأمم بالنسبة للعالم الغربي من حيث إدراك الذات والممتلكات . . فإن هذا التقسيم لم يكن يحمل نفس الأهمية بالنسبة للعالم الإسلامي . وتعتبر التقسيمات الإقليمية ذات أهمية قليلة جداً لدرجة أن كثيراً من البلدان تتساوى في افتقارها إلى اسم مجرد للبلد ، وقد نتج عن الدويلات الحديثة التي قسم إليها العالم الإسلامي نسبة كبيرة وملحوظة من الأسماء وهي تعتبر تكوينات جديدة . وبعض هذه الدويلات مثل سوريا وفلسطين وليبيا جاءت من العصور الكلاسيكية القديمة . وبعضها الآخر مثل العراق وتونس كانت أسماء مقاطعات في العصور الوسطى ، في حين أن بعضها الآخر مثل باكستان يعتبر بكل تأكيد أحد التكوينات الجديدة .

وعلى الرغم من قدم كلمة "عربية" Arabia وتركيا وقدم شعوبهما ؛ فإن هذه الكلمات تعتبر دخيلة دخلت حديثاً عن طريق العالم الغربي ولم يكن لدى العربي تسمية إقليمية لكلمة Arabia ولكنه أجبر على استخدام هذا التعبير للمنطقة ، أو لشبه جزيرة العرب .

كذلك فإنه مع أن الاسم "تركي" Turkey قد استخدمه الغربيون لقرون عديدة ، فإنه قد عدل إلى Turkish واستقر على هذا الاستخدام في القرن العشرين فقط ، وذلك نظراً لتسمية القطر الذي كان يطلق عليه من قبل أسماء الأسر الحاكمة أو أسماء إقليمية . وغالباً ما نجد أن نفس الاسم قد استعمل في الاستخدام الكلاسيكي ليدل على البلد أو المقاطعة وعلى المدينة الرئيسية للبلد . وغالباً ما كان اسم المدينة يطلق على المنطقة المحيطة بها . ولم تحدد أي سلطة التسميات الإقليمية قبل القرن التاسع عشر ، بل

على العكس كانت التسمية الإقليمية تستعمل للملكية التي كان ينظر إليها كدولة مستقلة . ويصدق هذا أيضاً بالنسبة لاستخدام أسماء السلالات البشرية بالرغم من أنها قليلة الوجود .

ولقد شكلت التكوينات الخاصة بالسلالات البشرية كالعرب والفرس والأتراك بصورة بارزة في الأدب والثقافة الإسلامية ، كما كانت اللغة والثقافة هي التي تحدد تكوين مجموعة أو أخرى ، وأحياناً كانت السلالة جزءاً مهماً من الوعي النفسي للفرد المسلم . ومن النادر وجود أي مغزى سياسي لها فلم يعتمد الحكام المسلمون في سيادتهم أو صياغة ألقابهم على أسماء الأمم ، وكذلك لم يكن ينظر إلى السلالات البشرية أو اللغة أو الإقليم ، على أن ذلك أساس لقيام نظام الدولة .

وينقسم الجنس البشري من خلال الرؤية الإسلامية للعالم إلى " دار الإسلام " Dar al-Islam ودار الحرب Dar al-Harb . ويتكون دار الإسلام من كل البلدان التي تنتشر فيها الشريعة الإسلامية ، وهي بصفة عامة الإمبراطورية الإسلامية . أما دار الحرب فتكون من بقية العالم ، ذلك أنه مثلما يوجد إله واحد في السماء ، فيجب أن تكون هناك سلطة واحدة ، وقانون واحد في الأرض . ومن وجهة النظر المثالية ، فإن دار الإسلام كان يجب أن تتكون من رعية واحدة ، وتحكمها دولة واحدة وترأسها سلطة واحدة . ويجب على هذه الدولة أن تتحمل وتحمي الأيمن الذين أصبحوا تحت حكمها نتيجة للفتوحات ، باعتبار أن هؤلاء ليسوا مشركين ، وإنما هم أتباع لديانات مسموح بها . ولكن منطق الشريعة الإسلامية لم يقر وجود أي دستور دائم غير الإسلام . وطبقاً للنظرة الإسلامية ، فإنه بمرور الوقت سوف يقر الجنس البشري كله الإسلام ، أو أنه على الأقل سوف يمثل للشريعة الإسلامية . وفي أثناء ذلك الوقت ، فإن واجب المسلمين الديني هو النضال حتى تتحقق هذه الغاية .

والإسم الذي أطلقه الفقهاء المسلمون على هذا النضال ه كلمة " جهاد " Jihad وهي كلمة عربية تعني العناية والكفاح ، ويطلق على الإنسان الذي يقوم بأداء واجب الجهاد لقب " مجاهد " Mujahid .

ولقد ذكرت هذه الكلمة مرات عديدة في القرآن للحث على الحرب ضد غير المؤمنين ، وكان هذا هو معنى الكلمة العادي خلال القرون المبكرة للتوسع الإسلامي . وطبقاً للشريعة Shari'a فإنه كان يوجد قانون مقدس بين دار الإسلام ودار الحرب ، ولقد صاغ الفقهاء التقليديون هذا القانون الذي أجبرت دولة الحرب على الخضوع له من الناحية الدينية والقانونية ، ومن الممكن أن يؤدي هذا القانون في نهاية الأمر إلى إخضاع الجنس البشري كله . وهكذا فإنه من الناحية الفقهية من المستحيل أن تكون هناك معاهدة بين دولة مسلمة وأخرى غير مسلمة والحرب هي وحدها التي يمكن أن تؤدي إلى انتصار الإسلام العالمي ، ومن المستحيل أن تنتهي هذه الحرب ، ولكن من الممكن فقط أن تتم أثناءها هدنة لأسباب خاصة ، أو لاستغلال الظروف . ووفقاً لرأي الفقهاء . . فإن مثل هذه الهدنة من الممكن أن تكون مؤقتة فقط ، فهي لا يمكن أن تتجاوز عشر سنوات ، ويستطيع المسلمون أن يتبرءوا منها في أي وقت من جانب واحد ، كما أجبرتهم الشريعة الإسلامية على توجيه إنذار للجانب الآخر قبل استئناف الاعتداءات .

وحتى في خلال هذه الفترات التي اتسمت بالسلام كان الاتصال مع الوثني ممنوعاً . وتميز الشريعة الإسلامية بين الأفعال التي كانت يمنع فعلها (أو ما يطلق عليها حرام Haram) وتلك التي كان ينظر إليها كأعمال مكروهة . والذهاب إلى دار الحرب هو افتداء الأسرى ، حتى الغرض التجاري لم يكن مقبولاً بالرغم من أن بعض المؤلفين قد سمحوا بشراء المواد الغذائية من الأراضي المسيحية في حالة الضرورة القصوى ^(١) .

ولقد اتخذت عقيدة الجهاد - مثلها في ذلك مثل أغلب أركان الشريعة - شكلها التقليدي خلال القرن الأول فيصف المنطقة الإسلامية ، عندما كانت الجيوش العربية تتقدم تجاه فرنسا وبيزنطة والصين والهند ، ولم يكن الانتصار النهائي والعالمي للإسلام حتمياً ؛ بل كان على وشك الحدوث وقد بدأت تظهر بعد ذلك ثغرة في هذه الحالة بين القاعدة القانونية والواقع السياسي (وذلك كما حدث في الحالات الأخرى) ولقد تجاهل الحكام والجنود هذه الثغرة وبذل الفقهاء قصارى جهدهم لإخفائها . ولقد انقسمت الدولة الإسلامية الوحيدة التي كانت موجودة في الواقع ؛ خاصة خلال القرن الأول

والثاني إلى دويلات أصغر ، ووصلت عقيدة الجهاد المستمرة ، والتي لا يمكن أن تقاوم إلى نقطة النهاية ، وبمرور الوقت . . نشأت علاقة متبادلة متسامحة بين العالم الإسلامي وبقية العالم ، وظل بقية العالم أيضاً باسمه كدار للحرب ، ولكن إخضاع بقية العالم أرجئ لمرحلة تالية .

وفي نفس الوقت ظهر إلى الوجود عدد قليل أو كثير من الحدود الثابتة بين الدولة المسلمة وغير المسلمة ، وكان السلام فيها يعتبر هو الحالة أو السمة الغالبة . ولقد خرق هذا السلام الغارات وغيرت الحروب الحدود الثابتة ، فمنذ عصر إعادة الفتح والعصر الصليبي كانت هذه التغييرات الحادثة في الحدود تتشابه تماماً مع تغييرات الحدود أمام الزحف الإسلامي .

ولقد طرحت هذه التغييرات والتصرفات الناتجة عنها في العلاقات السياسية والاقتصادية مع العالم الخارجي مشكلات جديدة أمام الفقهاء ، ولقد اكتفى الفقهاء بتفسيرات على درجة من القيمة في هذا المجال ؛ فأعيدت صياغة وتفسير واجب الحرب المقدسة مرة أخرى . وأصبح من الممكن أن تتوقف الاعتداءات نتيجة لهدنة مؤقتة ، ولكن ظل في الإمكان تجديد مثل هذه الهدنة كلما تطلب الأمر ذلك ، وبهذا . . أصبحت دولة الإسلام منظمة من الناحية القانونية .

لقد أقر بعض الفقهاء المكانة المتوسطة لدار الصلح أو دار العهد (Dar al - Sulh or Daral - Ahd) بين دار الحرب ودار السلام . ويعقد هذا العهد بين عدد من الدول غير المسلمة التي لها علاقة تعاقدية مع دولة الإسلام ، ومن خلالها أذعننت لسيطرة المسلمين ، وقامت بدفع الجزية مع احتفاظها - إلى حد ما - بشكلها الذاتي الخاص بالحكومة . وكان بعض الحكام المسلمين ومستشاريهم من الفقهاء ينظرون إلى الهدايا على أنها جزية ، ولهذا وسعوا مجال المعاهدة ؛ بحيث تغطي مجالاً واسعاً من التنظيمات مع القوى غير المسلمة ، تختص بالشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية . ومن الممكن أن يقوم غير المسلم المقيم في بيت الحرب بزيارة الأراضي المسلمة ، وكان في هذه الحالة يمنح تصريحاً يكفل له المرور آمناً ، وأطلق على هذا التصريح اسم

امان Aman . وطبقاً لرأي الفقهاء ، فإن أي رجل مسلم بالغ حر كان يستطيع أن يمنح الامان لشخص أو لعدة أشخاص . كما يستطيع رئيس دولة الإسلام أن يمنح اماناً لمجموعة أكبر مثل مدينة أو رعايا الملك أو بعثة اقتصادية ، وقد أسهم الامان الممنوح في تطور العلاقات الاقتصادية والسياسية بصورة كبيرة بين الدول المسلمة والمسيحية ، وهيات الشريعة الإسلامية المجال لظهور طوائف التجار الأوروبيين بصورة دائمة في المدن المسلمة . وكان أحد الخلافات المحددة بين الجانبين أنه لم يكن يمنح هذا الامان للمسلمين الزائرين ، أو الذين ظلوا مقيمين في أوروبا المسيحية ، ولقد كان الامان صيغة قانونية مسلمة نتيجة لاستمرار السلام ، في حين أنه نتيجة التحول في ميدان القوى الحقيقية ، فإن هذه العلاقات أخذت تنظم لزيادة الوجود عن طريق الممارسة الاقتصادية والسياسية الأوروبية لا عن طريق الشريعة الإسلامية .

كانت دار الإسلام تمثل كياناً واحداً سواء من الناحية النظرية أو القانونية ؛ فعلى الرغم من كثرة الخلافات الطائفية والدينية والقومية والاختلافات الأخرى التي ظهرت بين المسلمين . . فإنه كان ولا يزال يوجد هناك شعور قوي بالتشابه العام . ولذا كان من الطبيعي أن يهتم المسلمون بإنشاء وحدة مشابهة لتلك التي في دار الحرب ، عملاً بالقول الذي ينسب أحياناً للنبي محمد ﷺ : الكفر ملة واحدة . . (*) ولكن مضمون ونسبة هذا القول إلى النبي محمد غير صحيحة البتة ، إلا أن هذه الجملة مع ذلك تعبر عن الموقف العام الذي انعكس على الكتابات والأعمال المسلمة ، ولقد كان التقسيم الحقيقي والمهم للجنس البشري إلى مسلمين وغير مسلمين إذا كانت التقسيمات بين المسلمين ذات أهمية ثانوية . . فإن التقسيم الكهنوتي العلمي لغير المؤمنين الذين يعيشون خلف الحدود الإسلامية ، كان ذا أهمية أقل .

وفي الحقيقة . . أن المسلمين أقرروا الأهمية المحدودة للتقسيمات بين غير المؤمنين وكان أحد هذه التقسيمات يتمثل في التفريق بين هؤلاء الذين لهم ديانات سماوية ، واولئك الذين ليس لهم ديانات سماوية ، وكان هذا الاختيار واضحاً للمحمديين

(*) هذا ليس حديثاً ، ومن الواضح أن المؤلف يركز على الأفكار الغربية .

والمشركين ، فإما الإسلام وإما الموت . وبالنسبة لليهود والمسيحيين الذين كان لديهم ما يثبت أنهم أصحاب ديانة سماوية تعتمد على كتب مقدسة ، فإن مجال الاختيار اتسع فشمّل عنصراً ثالثاً : فإما الإسلام وإما الموت وإما الامتثال لدفع الجزية التي اشترطها الإسلام ، مقابل سيادة الإسلام عليها والتكفل بحمايتها .

وكان من الممكن أن يستبدل العبودية بالموت ، وكان يمنح هؤلاء الذين يمثلون للشريعة والعمل الإسلامي تسامح وحماية الدولة الإسلامية ، وتنظيم العلاقة الناتجة عن ذلك يطلق عليها في اللغة العربية مصطلح الذمة AL- dhimma والذين ينتفعون بهذه العلاقة يطلق عليهم مصطلح أهل الذمة أو باختصار الذميين dhimmis لقد كان هذا العنصر مطلوباً بصفة عامة لليهود والمسيحيين ، وبعض الذين أصبحوا من رعايا الدولة الإسلامية ؛ فهذه العلاقة تسمح لهؤلاء بممارسة عباداتهم وفقاً لقواعد "الذمة" ، وتسمح لهم بالإبقاء على أماكن عباداتهم الخاصة . وفي كثير من الأحوال تسمح لهم بتصريف شؤونهم الخاصة ؛ نتيجة اعترافهم الصريح برسالة الإسلام وسيادة المسلمين . لقد تم التعبير عن هذا الاعتراف في سلسلة من القيود ، التي فرضها القانون المقدس على أهل الذمة ؛ خاصة فيما يتعلق بالملابس التي يجب أن يرتدوها ، والمطايا التي يتعين عليهم أن يركبوها ، والأسلحة التي يجب أن يحملوها وأشياء أخرى مشابهة ، معظمها كانت صفته الاجتماعية الرمزية غالبية على صفته الواقعية والعملية . أما العبء الاقتصادي الوحيد الذي فرض على غير المؤمنين ، فكان عبئاً مالياً ، إذ كان عليهم دفع ضرائب باهظة ، وهذا هو النظام الموروث من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وفوق كل هذا كان عليهم دفع ضريبة الرأس ، التي تعرف باسم الجزية Jizya المقررة على كل رجل غير مسلم بالغ . وكان قانون أهل الذمة مستخدماً فقط مع اليهود والمسيحيين الذين يعيشون في المناطق الإسلامية ، وتحت رعاية حاكم دولة الإسلام . أما المسيحيون الذين ظلوا خلف الحدود فكان يطلق عليهم مصطلح حربي Harbi الذي يعني أنهم من سكان دار الحرب . أما الذين جاءوا من دار الحرب إلى دار السلام زائرين أو مقيمين مؤقتين . . فقد أطلق عليهم المصطلح المستأمنون Mustamin ، وهذا

المصطلح يعني أنهم يتمتعون بالأمان ، ولا يخفى أن المعلومات عن المسلمين الموجودين في العالم الإسلامي كانت كاملة وأكثر دقة بالنسبة لأهل الذمة ، وأقل قدراً بالنسبة للمستأمنين . وتعد محدودة ولا يعتد بها بالنسبة لسكان دار الحرب .

وبناء على هذا فإن الخطوط العريضة للتقسيم من الممكن رؤيتها ؛ فالتصنيف الرئيسي كان عن طريق الدين . وكان ينظر لليهود المسيحيين على أنهم جاليات دينية وسياسية مثل الإسلام نفسه ، ولكن بدرجة أقل والحقيقة أنه تم مناقشة الفكرة العامة عن الدين ؛ باعتباره طبقة أو فئة منها اليهودية والمسيحية والإسلام كأمثلة فردية ، وترجع هذه الفكرة في الأصل إلى مجيء الإسلام وقدرة المسلمين على الملاحظة والتعرف على الديانتين الميزتين اللتين سبقتا الإسلام ، واختلافهما عن شكل ديانتهم السماوية والسياسية والخاصة بهم^(٢) . هذا الإدراك لم يكن موجوداً عند المسيحيين أو اليهود القدماء ، أو عند أي عبادة من العبادات في العالم القديم . أما بالنسبة للمسلم ، فإن مجيء النبي محمد ﷺ ومعجزة القرآن وضع النهاية لمثل هذه الرسالات ، ومن خلال هذا عرف الجنس البشري الهدف الإلهي . لقد كان هناك عدد من الأنبياء أرسلهم الله في مهام للجنس البشري ، وكان هؤلاء حملة كتب مقدسة ، وكان محمد هو خاتم الأنبياء ، وكان القرآن هو الكتاب الأخير الكامل . ويحتوي القرآن على كل ما له قيمة في الأسفار القديمة . أما الذي لم يحتويه القرآن من الكتب السابقة فمرجه إلى التحريف أو التشويه للنصوص القديمة . ولم يكن اليهود أو المسيحيون غرباء على الإسلام فكلتا الديانتين ظهرت في البلاد العربية قبل الإسلام ، وكانتا معروفتين للنبي وصورتا في القرآن ، وفي معظم الروايات القديمة .

ويحدد الإسلام نفسه من وجهة نظره الخاصة أمام المعتقدات السابقة : يحدد نفسه أمام اليهودية والمسيحية وأيضاً أمام المعتقدات العربية الوثنية ، التي دارت المعارك معها بصفة رئيسية . عندما يعلن القرآن (سورة ١١٢) ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾^(٣) . فهو يرفض قبول اللاهوت المسيحي . وعندما يقول (سورة ١١٤/١٦) ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله ﴾ .

فإنه ينبذ بعض العقائد اليهودية المتعلقة بالغذاء⁽⁴⁾ ، وأبرز مبدأ التمايز والتعاضد اعتماداً على ما ورد بالسورة (١٠٩) ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين ﴾⁽⁵⁾ لقد كانت هذه الفكرة جديدة تماماً وغير مسبوقة على الإطلاق في العقيدة المسيحية أو اليهودية ، ووجد المسلمون أنفسهم بعد الفتوحات الإسلامية أقلية حاكمة بين أغلبية مسيحية تشغل المنطقة الواقعة ما بين النهرين وإسبانيا ، ومن هنا واتهم فرصة كبيرة للملاحظة أجزاء شاسعة من العالم المسيحي وملاحظته في نواحي العمل والعبادة واللهم . وأصبح قدر يسير من المعلومات الخاصة بالمعتقدات المسيحية يمثل جزءاً من المعرفة العامة عند المسلمين المتعلمين ، وقد تأثرت بعض الأمور المتعلقة بالمذهب والممارسة بما يشابهها في المسيحية .

وبالمناسبة . . هناك عالم مسلم قام بدراسة ما للديانة والكتب المقدسة والمسيحية واليهودية ، وفي بعض الأحيان كان الغرض من مثل هذه الدراسة تفنيد الديانات القديمة إلى الإسلام ، وفي بعض الأحيان كان الاهتمام بمثل تلك الدراسات تعليمياً أكثر منه جدلياً ، ولقد احتوت الكتب الإسلامية على بعض المناقشات عن العقيدة والكتب المقدسة المسيحية واليهودية ، وذلك في ثنايا تصنيف الديانات والمذاهب . ويبدو أن هذه الدراسة الأدبية كان أول ظهورها في الإسلام الوسيط .

وبالتدريج حلت اللغة العربية مكان اللغات السابقة للمسيحيين واليهود ، الذين كانوا يعيشون تحت الحكم الإسلامي ؛ فبدأوا في تقديم أدب خاص بهم مكتوب باللغة العربية ، ويحتوي على ترجمات للكتب المقدسة . ورغم أن معظم تلك الكتابات المسيحية واليهودية كانت باللغة العربية فإنها كانت تظهر في أشكال بحروف اللغة السريانية للمسيحيين وحروف العبرية لليهود ، فكان متعذراً قراءتها بالنسبة للقراء المسلمين ، وحتى عند كتابتهم باللغة العربية . . فإنهم لم يجذبوا سوى عدد من علماء المسلمين . وبصفة عامة كان لهم احترام أقل ، وذلك لاقتناع المسلمين بكمال الإسلام وسيادة القوة الإسلامية ولاقتناعه أيضاً بأن هؤلاء الكتاب كانوا أتباعاً لديانات أخرى قبل

الإسلام وأعضاء جاليات هزمها الإسلام ، ولذلك لم يمتعوا إلا بقدر قليل من الاهتمام والتقدير .

وهناك أيضاً بعض الاعتبارات التي حددت المواقف الإسلامية تجاه الوثني الذي كان يعيش خلف الحدود الإسلامية . فخلال القرون الأولى امتدت الإمبراطورية الإسلامية أساساً تجاه الغرب والشرق وإلى الشمال والجنوب من بلاد المسلمين ، ولم تحظ المناطق الخالية لأوراسيا وأحراش وصحاري أفريقيا إلا باهتمام قليل من جانب المسلمين ، وكان تقدم الإسلام في هذه المناطق بطيئاً ومتأخراً . أما الاهتمام الأساسي بالغزو والفتح فقد وجه إلى أكثر المناطق إزدحاماً بالسكان امتيازاً ؛ حيث اتجه الفتح إلى الغرب صوب شمال أفريقيا . ومن هناك أكمل المسيرة إلى أوروبا ، كما اتجه صوب الشرق عبر إيران إلى وسط آسيا ؛ حيث اقترب من الهند والصين ، وكان هناك أعداء كبار قابلهم المسلمون في الاتجاهين . في الشرق ، كانت هناك الإمبراطورية البيزنطية ومن خلفها الممالك المسيحية النائية . ومن وجهة النظر الإسلامية كان هناك اختلاف أساسي بين طبيعة الحرب ضد المسيحيين والحروب ضد الأعداء الآخرين للإسلام ، ومنها الشعوب المحبة للحرب في السهول والغابات ، حتى في الحضارات الكبرى للصين والهند التي كانت معلومات المسلمين عنها محدودة ، لم ير المسلمون وجود بديل ملموس للإسلام . واعتبروا التقدم الإسلامي في هذه المناطق جزءاً من الإسلام الحتمي لتلك الشعوب الوثنية ، ولذا فإنه لم يتصادم مع أي عدو عسكري ذي فكر أوسع أي بديل ديني له صفة الأهمية . وعلى العكس من هذا ، كان الصراع في الغرب ضد عدو وثني وضد نظام سياسي ينكر أساساً المهمة العالمية للإسلام ، وقد أعلن هذا الإنكار بصورة عامة واضحة . ولم يحجب اقتناع المسلمين بقدرتهم على الانتصار النهائي أهمية الصراع الطويل بين عقيدتين مجتمعيتين . ولهذا .. نجد أن العالم المسيحي في الكتابات الإسلامية أصبح داراً للحرب ، وأن الحرب ضد المسيحية هي النموذج الأمثل للجهاد .

وفيما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ترتب على إعادة الفتح المسيحي لإيطاليا وتراجع الإسلام أن أصبحت البرتغال وإسبانيا ، وهما من أقدم وأكبر المناطق الإسلامية التي أنشئت ، تحت حكم المسيحيين . وفي أحوال كثيرة كان يتبع إعادة الفتح ، وبعد فترة من التسامح ، أن يقوم الحكام المسيحيون بجهد خاص لتحويل المسلمين عن دينهم أو طردهم . ولقد نجح هذا الجهد على المدى الطويل . وبصفة عامة . . فإن الرفض المسيحي للتساهل مع الرعايا المسلمين ، كان يقابله رفض إسلامي للبقاء تحت الحكم المسيحي . وقد ذكر معظم الفقهاء المسلمين أنه من المستحيل للمسلم أن يعيش تحت أي حكم غير إسلامي ، وإن أي وثني في أراضي الوثنيين تحول إلى الإسلام فإن من واجبه ترك بيته وبلده ، والرحيل إلى بلد يحكمه المسلمون ويتمتع بالقانون الإسلامي . والمصدر المقدس لهذه الشريعة كان هجرة النبي محمد ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة ، وهو الحدث الذي حدد مولد دولة الإسلام وبداية العصر الإسلامي ، وأي مكان كان يذهب إليه الرسول ﷺ كان على الآخرين أن يتبعوه إليه .

أدى ضياع الأراضي الإسلامية على أيدي الفاتحين المسيحيين إلى ظهور مشكلة جديدة تصدى لها فقهاء المدرسة المالكية التي ظهرت في شمال إفريقيا وإسبانيا المسلمة وصقلية . وانقسم فقهاء المالكية في مناقشتهم للمشاكل الناتجة عن ضياع الأقاليم الإسلامية على أيدي المشركين ، والقليل منهم يذكر أنه إذا سمح للحاكم المسيحي بممارسة حرة للديانة الإسلامية ، وسمح للمسلمين بالعيش وفقاً لإرشادات القانون المقدس فإنه يجب على المسلمين البقاء . وبعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك ففضل السماح للرعايا المسلمين أن يتساهلوا مع المشركين ويخفوا دينهم ؛ انتظاراً لإعادة إحيائه مرة أخرى . وإياً كان الأمر فإن النظرة السائدة هي أنه على الأقل يجب على بعض المسلمين في البلد الذي أصبح تحت الحكم الوثني أن يفعلوا مثلما فعل أسلافهم في مكة ويقوموا بالهجرة من المنطقة الوثنية إلى منطقة إسلامية . وهناك صياغة تقليدية قدمها الفقيه المراكشي الونشريسي al-wansharisi الذي أشار إلى أنه يتعين على كل المسلمين الهجرة ؛ إذ إنها أفضل من البقاء تحت حكم المشركين ^(١) ، حتى ولو كان المشركون

متسامحين فإن هذا سوف يكون دافعاً للرحيل بدلاً من إضعاف الدعوة . وحيث إن هناك خطراً أكبر وهو التخلف عن العقيدة ، فإن استبداد الإسلام أفضل من العدالة المسيحية . وبصفة عامة فإن العدالة المسيحية لم تكن متاحة .

ورغم وجود استثناءات فقد استقر المسلمون لفترة في صقلية بعد إعادة فتحها تحت حكم النورمان الذي تميز بالسماحة النسبية ، وكذلك كان الأمر في بعض أجزاء إسبانيا بعد أن أعاد المسيحيون فتحها ، ولكن وجود المسلمين وبقائهم هناك اعتمد على الوجود المستمر للدول الإسلامية في الجنوب . وبعد الانتصار المسيحي النهائي في عام ١٤٩٢ لم يستمر هذا التسامح طويلاً ، وبعد فترة قصيرة جداً صدر مرسوم بطرد المسلمين ، وبرزت المشكلة مرة أخرى في أوروبا الغربية ؛ نتيجة للغزو الروسي للأراضي الإسلامية شمال وشرق البحر الأسود ، ونتيجة أيضاً لضياح الممتلكات العثمانية في البلقان ، وأصبحت هناك مجموعات جديدة من المسلمين تحت الحكم المسيحي ، ووجد بعضهم نفس الحل وهو الهجرة ، غير أن التحلل من المجتمع الذي عاشوا فيه في عصر الإمبراطورية الأوروبية ، لم يكن حلاً .

ومع نهضة الإمبراطوريات الروسية والبريطانية والفرنسية والألمانية . . انتشر الحكم المسيحي أخيراً في المراكز الرئيسية للعالم الإسلامي ؛ حيث أجبرت أعداد كبيرة من المسلمين على البقاء تحت السيطرة الوثنية ، ولكن أظهر المسلمون اهتماماً بالعالم المسيحي يسترعي الانتباه ، وما عرفوه عن هذا العالم كان كافياً بالنسبة لهم ، وهو الجزء الخاص بالإمبراطورية المسيحية اليونانية البيزنطية . ولقد عرفت هذه الإمبراطورية في الحوليات الإسلامية باسم أرض الروم حيث كانت تعتبر العدو الرئيسي للدولة الإسلامية . وذكرت بصورة متكررة في تاريخ الحروب الإسلامية ، وقد ناقشت الكتابات الجغرافية والتاريخية الإسلامية مقاطعات هذه الإمبراطورية التي تقع خلف الحدود الإسلامية مباشرة .

لقد كتب صاعد بن أحمد ، قاضي مدينة طليطلة ، باسبانيا في عام ١٠٦٨م أي بعد معركة هاستنج بعامين وقبل ثلاثين عاماً من وصول الصليبيين لفلسطين ، كتب كتاباً

باللغة العربية عن فئات الشعوب ، وفي مقدمته قسّم شعوب الجنس البشري إلى نوعين هما : الذين وهبوا أنفسهم للعلم والمعرفة ، والآخرين الذين لم يفعلوا ذلك . أما الشعوب التي أسهمت في تقدم المعرفة فهم : الهنود والفرس . واليونانيون والرومان (ويشملون البيزنطيين والمسيحيين الشرقيين) ، والمصريون والعرب (ويشملون المسلمين بصفة عامة) واليهود . وهذه المجموعة من الشعوب تشكل موضوع بقية الكتاب ككل . أما عن بقية الجنس البشري فنجدّه يشير إلى أن الصينيين والأتراك من "أفضل الشعوب غير المتعلمة" وهم يستحقون التقدير لأنهم رواد في مجالات أخرى .. الصينيون لمهارتهم في الصناعات اليدوية والفنون التصويرية ولقوة تحملهم ، والأتراك لشجاعتهم ومهارتهم في فنون الحرب وفروسيتهم وإتقانهم استخدام الرمح والسيف والقوس أما بقية الأجناس فيشير إليها المؤلف بازدراء ، ويصفهم بأنهم شماليون وجنوبيون ، وقال عن الشماليين :

وأما سائر هذه المنطقة التي لم تعن بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس ، لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة التي في نهاية المعمورة من الشمال ، فافترط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم ، وبرد هوائهم وكثف جوههم فصارت لذلك امزجتهم باردة وأخلاطهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم ، وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذه دقة الأفهام وثقابة الخاطر ، وغلب عليهم الجهل ، والبلادة ، ونشأ منهم العجز والغباوة ، كالصقالبة ، والبلغر ومن اتصل بهم" (٧) .

مما سبق . . فإن صاعداً هذا كان يعبر بصفة عامة عن نظرة العلماء المسلمين في عصره ، وهو يحدد مركز العالم بأنه كان في الأراضي الإسلامية الممتدة من إسبانيا عبر شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط . وتشمل هذه المنطقة تقريباً كل الشعوب ومراكز الحضارات القديمة .

وإلى الشمال . . كانت الإمبراطورية المسيحية البيزنطية ، التي أعيد ظهورها مبكراً ، وهي تمثل مرحلة متخلفة من الحضارة ، تركز على الثورة الدينية ، بعد أن وصلت إلى شكلها النهائي والكامل في الإسلام . وإلى الشرق خلف بلاد فارس ، كانت هناك بلدان بها شكل ما للحياة المتحضرة ولكنها كانت مع ذلك من مرتبة أقل ، وكان ينتشر بها نوع من الوثنية . وكان للهمج البيض والسود جزء من هذا العالم في الشمال والجنوب ، ونظراً لتطور المعرفة الإسلامية عن بعض هؤلاء الهمج الشماليين . . نخصهم بالذكر في هذا المؤلف .